من نوادر المخطوطات

أثر أدبي فـــذ !

اختراع الخراع لصلوح الدين الصفدي

للأستاذ علي الطنطاوي

أطلعني على هذه الرسالة صديقي الشاعر الأديب السيد أحمد عبيد ، أحد أصحاب المكتبة العربية العامرة بدمشق الشام ، فرأيتها رسالة عجيبة ، وتحفة أدبية غريبة ، ورأيت فيها فناً من فنون الأدب العربي لا يعرفه الناس ودليلا على بعد الغاية التي بلغها أدبنا ، ورأيت فيها جمالا ولذة ، ووجدت فيها نفعاً وفائدة ، فأحببت أن أتحف بها قراء الرسالة ، فتكون لهم أفكوهة وللادب خدمة ، بتسجيل هذا الأثر الجميل من آثاره الضائعة في الرسالة (السجل الأدبي الخالد)

صلاح الدين ، أبو الصفا ، خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى سنة ٧٦٤) أحد أئمة القلم والأدب في عصره ، « مهر في فنّ الأدب ، وكتب الخط المليح ، وقال النظم الرائق ، وألف المؤلفات الفائقة ، وباشر كتابة الانشاء بمصر ودمشق ، ثم ولي كتابة السرّ بحلب ، ثم وكالة بيت المال بالشام ، وتصدّى للافادة بالجامع الأموي ، وحدّث بدمشق وحلب وغيرها . ذكره شيخه الذهبي في المعجم المختص ، فقال : الامام العالم الأديب البليغ الأكمل ، طالب العلم وشارك في الفضائل ، وساد في علم الرسائل ، وقرأ الحديث وكتب المنسوب وجمع وصنف والله يمدّه بتوفيقه ، سمع مني وسمعت منه ، وله تآليف وكتب وبلاغة »[1]

قال شيخ الاسلام التاج السبكي[2] :

(خليل بن أيبك) الشيخ صلاح الدين الصفدي الامام الأديب الناظم الناثر أديب العصر : ولد سنة ٦٩٦ وقرأ يسيراً من الفقه والأصلين ، وبرع في الأدب نظماً ونثراً وكتابة وجمعاً ، وعني بالحديث ، ولازم الحافظ فتح الدين بن سيد الناس وبه تمهر في الأدب ، وصنف الكثير في التاريخ والأدب . قال لي : إنه كتب أزيد من ستمائة مجلد تصنيفاً

ومن مؤلفاته الوافي بالوفيات ويكاد يكون أجمع كتب التراجم[1] . ومن مؤلفاته المطبوعة نكت الهميان في نكت العميان ، والغيث المنسجم في شرح لامية العجم ، وجنان الجناس في الأدب ، ودمعة الباكي ، وتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (وهي غير الرسالة التهكمية التي شرحها ابن نباته) ووصف الهلال وغيرها[2]

أما هذه الرسالة التي نتكلم عنها ، فلم أجد من ذكر أنها له ، ولكني لا أشك في أنها إن لم تكن له ، فلن تكون إلا لأديب كبير ، وعالم متمكن ، ولغوي محقق ، وهي في شرح بيتين من الشعر . . . شرحهما المؤلف شرحاً مستفيضاً ، حلاه بالنكات اللغوية والمسائل النحوية ، والطرائف الأدبية ، والآراء الفلسفية ، وزينه بالحكم الباهرة ، والأمثال السائرة ، واستشهد على كل مسئلة من مسائله بأقوال العرب . . . ولكنه — وتلك ميزة هذا الكتاب — تعمّد ألاّ يأتي إلاّ بما هو خطأ محرّف عن أصله ، معدول به عن جادة الصواب ، ممال به عن سبيل الحق : فلا بيت ينسب إلى صاحبه ، ولا كتاب يعزى إلى مؤلفه ، ولا مسألة تورد على وجهها ، ولا بلدة توضع في موضعها ؛ وقد أورد ذلك كله بحذق ومهارة ، ولباقة وظرف ، حتى أن الرجل ليتلوه فيحسّ لحلاوة ما يقرأ أنه لا يقرأ إلا حقاً وصدقاً ، وما فيه من الحق والصدق شيء

ولا يقدر على الخطأ الذي لا صواب فيه ، إلا من يقدر على الصواب لا خطأ معه . يحتاج كلاهما إلى علم بمواقع الخطأ ووجوه الصواب ، وانتباه وفطنة ، واطلاع ومعرفة ، كيلا يخلط خطأ بصواب ، أو صواباً بخطأ . والرسالة على ما فيها من الهزل والتحريف ، تدلّ على طول باع مؤلفها في علوم اللسان ، وعلوم العقل ، ووقوفه على آراء الفلاسفة ، وآثار الأدباء ، ومباحث العلماء ، ولا تخلو من فوائد

* * *

وهي ناقصة من وسطها وآخرها ، والموجود منها (٥٣) صفحة ، في كل صفحة (١١) سطراً ، مكتوبة بخط قريب من

(١) شذرات الذهب (٦ — ٢٠١)

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٦ — ٩٤)

(١) راجعت بعض التراجم في بعض الأجزاء الفوتوغرافية ، في دار الكتب المصرية العامرة فوجدته قد جمع فأوعى ، ولم يدع بعده مجالا لقائل

(٢) عن الأعلام للزركلي

النسخى ، مضبوط قليل الأخطاء ، يدل على علم ناسخه . وليس فى الرسالة تاريخ ، ولكن ورقها من الورق الذى بطل استعماله من ثلاثة قرون ، فكأنها مكتوبة فى القرن التاسع أو العاشر على الصفحة الأولى منها :

كتاب اختراع الخراع
تأليف المولى الأجل الفاضل
العلامة فريد دهره ووحيد
عصره صلاح الدين أبى الصفا
خليل بن أيبك الصفدى
رحمه الله تعالى

للشيخ عبد الجواد :

بدا لابن أيبك فى عصره ... كساد العلوم وخبث الطباع
وأن الأماثل قد أصبحوا ... هباء يطار بهم فى الشعاع
وأن كثيراً كالاهم ... دعاوى أحاديثها فى انقطاع
فجرّ بأفعاله رأيهم ... وألحفهم باختراع الخراع

وعلى الرسالة تعليقات لطيفة ، وتنبيهات شريفة

* * *

وأول الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو خرافة ، الهدّ القشيرى ، سامحه الله تعالى : حضرت فى بعض أوطان أوطارى ، وأوكار أفكارى ، مع جماعة الخ ..

فابتدر أحد ظرفائهم فأنشدنا بيتين الخ . . . وهما

لو كنت بكتوت امرأة جارية الفضل
وكان أكل الشعير فى البرد مَلْبَسكو
لابدّ من الطلوع إلى بترك فى ... الليل وظلام النهار متضحّ

فأخذ الجماعة فى الاعجاب ، مما اتفق فيهما من اختلال النظم ، واختلال القافية ، وعدم الاعراب ، وخلاف أوضاع اللغة ، وتناقض المعنى وفساده ، والتخبيط فى التاريخ ، وقضوا نهارهم بتعاطى كؤوس العجب من ذلك

فقال أحدهم : الا إنهما محتاجان إلى شرح ينخرط معهما فى سلك الغريب ، ويبرز فى مظهرها العجيب !

فالتزم بعض من حضر الخ ... وصبّحهم وقد أعمل فى الشرح حيلته ... فقال :

حدّثنى نصير الدين أبو الهزايم ثابت [1] ، قال حدثنى من كتابه أصيل الدين أبو المفاخر لقيط القطربى ، وقيل القرطبى ، قال أخبرنى اجازة أسد الدين أبو ثور صقر القَنْجكردى من أهل دمشق ، قال : إن افتخار الدين سبكتكين القُسَيْهتانى صاحب زهر الآداب ، قال : عارض هذين البيتين الأفوه الأودى أبو على ، على ما ذكره الحريرى فى الخطب النُباتية [2] فى قوله :

وإذا نظرت إلى الوجود بعينكم ... فجميع ما فى الكائنات مليح [3]

وهذا من قصيدته الطردية فى التشبيهات ، وأولها :

وأنت يا غصن النقا ... ما أنت من ذاك النمط [4]

وزعم مؤيد الدولة أبو خاذل أيدكين الجواليقى ، صاحب المديح المأمونى ، فى كتاب الصادح والباغم ، فى باب المرائى أنهما من باب قول الثعالبى :

لو كنت شاهين جارية الفضل وكان الحريم منزلك
لابدّ الخ ...

وليس بشىء والصحيح الأول [5]

قال الشارح عفا الله عنه : نبدأ أولاً بما فى البيتين من اللغة وثانياً بما فيهما من الاعراب ، وثالثاً بما فيهما من التاريخ وتقدير المعنى ، ورابعاً بما فيهما من البديع ، وخامساً بالكلام على ما يتعلق بعروضهما ، وسادساً بما يتعلق بعلم القافية

القول فى اللغة :

قوله بكتوت : هو علم مركب من اللغة العربية والتركية ، فبك بالعربى وتوت بالتركى ، ومعناها أمير توت مثل دمرطاس ومروان وقراحاً وما أشبه ذلك ، ومن قال إن معنى ذلك بالعربية أمير النيروز فلا يتأتى له ذلك إلا إن كان النيروز فى شهر توت على ما ذكره السخاوى فى سمع الكيان [6]

قوله امرأة : المرأة مشتقة من المرآة ، وهى التى يرى الانسان فيها وجهه إذا كانت فى جيبه أعنى السراويل ، وكقول الأخطل :

(١) تأمل فى التناقض بين نصيره الدين وكونه أبا الهزايم
(٢) صاحب زهر الآداب أبو اسحاق الحصرى ، والأفوه الأودى من شعراء العرب ، وأبو على القالى صاحب الأمالى ، والخطب لابن نباته ..
(٣) من شعر أرباب الوحدة ... (٤) من شعر البهاء زهير
(٥) الصادح والباغم لابن المبارية ، وليس فيه مراث ، والثعالبى هو صاحب يتيمة الدهر وغيرها ، والبيتان من شعر ابن الحجاج
(٦) السخاوى معروف ، وسمع الكيان كتاب عارض فيه محمد بن زكريا الرازى الطبيب كتاب أرسطو الطبيعى

ما أخـــذ المرآة فى كفّه ينظر فيها للجمال المصون
إلا رأى الشمس وبدر الدجى ووجهه فى فلك يسبحون[1]

قوله جارية فيها قولان ، منهم من قال : هى الساقية لأنها تجرى من أسفل إلى فوق ، واستشهد بقول الحطيئة :

نديمتى جارية ســـاقية ونزهتى ســـاقية جاريه
جاريةٍ أعينهـــا جنّة وجنّة أعينها جاريه[2]

ومنهم من قال هى فى مقابلة المملوك ، واستشهد بقول العكوّك :

أيا بديع الجمال رقّ لمن ستر هواه عليك مهتوك
دموعه فى هواك جارية وقلبه فى يديك مملوك[3]

وهذا باطل ببديهة الانسان

قوله الفضل : هو كل شىء ناقص ، ومنه سمّى عبد الرحيم كاتب مروان بالفاضل لأنه كان قصيراً[4] ، وفى أمثال بزرجمهر لأمر ما جدع قصير أنفه[5] . قال التلعفرى :

ضعاف الطير أطولها جسوماً ولم تطل البزاة ولا الصقور[6]

قوله كان : معلوم أنها للاستقبال وسيأتى الكلام عليها فى الاعراب

قوله أكل : هو الحالة المؤدية إلى الجوع لمن هو شبعان الخ ..

قوله الشعير : معروف أنه من فواكه الآدميين ؛ ولا يوجد إلا فى جزرات الهند بالمغرب فى الليل دون النهار صيفاً . قال ابن الساعاتى :

جارية لم تأكل المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

ومن استشهد فى هذا بقول ابن الفارض يصف رجلاً من الأكراد كوسجاً :

إن تطل لحية عليك وتعرض فالخالى معروفة للحمـــير
علق الله فى عذاريك خالا ة ولـكنها بغير شـعير[7]

(١) الأخطل معروف ، والبيتان لابن سناء الملك
(٢) الحطيئة معروف ، والشعر لعرف الدين شيخ الشيوخ
(٣) العكوك هو على بن جبلة من شعراء العصر العباسى . والبيتان كاتبهما محيى الدين بن عبد الظاهر . .
(٤) عبد الرحيم هو القاضى الفاضل كاتب السلطان صلاح الدين وكاتب مروان إنما هو عبد الحميد الكاتب
(٥) بزرجمهر حكيم الفرس والمثل من أمثال قصة الزباء المشهورة . .
(٦) التلعفرى شهاب الدين متأخر ، والشعر للعباس بن مرداس
(٧) ابن الساعاتى بهاء الدين بن رستم من شعراء صلاح الدين ، والبيت من شواهد كتاب سيبويه ، وابن الفارض معروف ، والشعر لابن الرومى . .

فليس من التحقيق فى شىء والمعنى على الأول

قوله البرد : هذا معروف أيضاً عند الأساكفة فى الشام وأظنه نوعاً من الأطلس الحريرى . قال امرؤ القيس فى معلقته الطائيـة :

قالوا حريراً كان وجه حبيبه ونرى مسوح الشعر فوق الأطلس
جهلوا معانى حسنه مع علمهم أن الحرير كماله بالقندس[1]

ومن قال إنه نوع من العدبى وأنشد الخ .. فليس بشىء لأن العدبى نوع الخ . . والأطلس إنما هو فلك القمر خلافاً لأبى تمام فانه فى الخطب النباتية زعم أنه الفلك الذى له الحركة القمرية الخ . . وهذا رأى المشائين . والرواقيون خالفوهم والعمدة فى اللغة على أقوالهم[2] (إلى أن قال) :

لابدّ : البد معلوم ، وهو صنم يعبده اليهود فى النوبة . قال بعض شعراء الجاهلية :

من قال لا بدّ منه فمنـه لى ألف بدّ

وقال النابغة :

دعوه يبـلى فؤادى لا خفّف الله عنـه
كم لمت قلبى فيـه فقال : لا بدّ منه[3]

(البقية فى العدد القادم) على الطنطاوى

(١) البيتان من شعر المتأخرين
(٢) أبو تمام معروف ، والخطب النباتية تقدم ذكرها ، والفلك الذى له الحركة القمرية محدد الجهات ، وهو الذى يدور من الشرق إلى الغرب فى كل يوم وليلة دورة ، والمشاؤون والرواقيون أصحاب المدرستين المعروفتين فى الفلسفة اليونانية ؛ ولا شأن لهم باللغة . .
(٣) من شعر المتأخرين